

دلالة آيات الله على توحيد الله وعبادته

..... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. قسم العلماء التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. وذكر بعضهم أنه قسما: توحيد المعرفة والإنبات، وتوحيد الطلب والقصد. وذكروا أن المشركين كانوا يعترفون بتوحيد الإنبات- الذي هو توحيد الربوبية- يعرفون الله تعالى، ويعرفون بأنه ربهم، ويعرفون بأنه الذي خلق المخلوقات، وأنه المتصرف في الكون، يعترفون بذلك، وإنما كان كفرهم وشركهم بإنكارهم لتوحيد الإلهية- الذي هو توحيد العبادة- وما ورد من الأدلة في تقرير توحيد العبادة هو الأصل لأن الخصومة فيه، وحيث إنهم يقرون بتوحيد الربوبية فإنه حجة عليهم، يحتج الله تعالى عليهم بالتوحيد الذي أفروا به -وهو معرفة الله تعالى- وأنه الذي خلقهم، والذي رزقهم، فيعترفون بهذا النوع، فكان حجة عليهم، ولذلك قال الله تعالى: { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ { يعترفون بأنها لله، لأنها ملك لله تعالى وحده: { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } يعني أفلا تتذكرون أنه إذا كان هو مالكها فتعبدونه وتخلصون للعبادة له؟! ثم قال: { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ { أي: أنها ملك الله وأنه ربها، { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَهُ } أفلا تتقونه وتوحدونه وتخلصون له العبادة دون ما سواه؟! وترتكبون الإشراك به وأنتم تعلمون أنه رب السماوات السبع وأنه رب العرش العظيم! { قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُخَيِّرُ عَلَيْهِمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ } أي يعترفون بأن الله هو الذي بيده الملك، وله الملك، ويده ملكوت كل شيء، وأنه الذي يجبر، ولا يجبر أحد عليه. يعترفون بذلك، ومع ذلك يجعلون له شركاء، { فَأَنَّى تُشْحَرُونَ } وكيف تُشْرَفُونَ عن عبادته وتدعون أن له شركاء؟! فعرفنا في ذلك أنهم مقررون بهذا النوع الذي هو توحيد الربوبية: اعتقاد أن الله ربهم وخالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، ومع ذلك يعبدون معه آلهة أخرى. فيحتج الله تعالى عليهم بالشيء الذي يعترفون به على ما ينكرونه. الذي ينكرونه هو: عبادته، إخلاص العبادة له، مع أنهم قد يخلصون له، فإذا كانوا في الرخاء فإنهم يعبدونه ويعبدون معه غيره، وأما إذا كانوا في الشدة فإنهم يعبدونه وحده، ولا يعبدون معه غيره، ولذلك قال تعالى: { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا { ذهبت عنكم آلهتكم، ونسيتم معبوداتكم، وعرفتم أنها لا تفيدكم، وأنها لا تنجيكم من هذه الشدة، فأخلصتم العبادة لله، ونسيتم آلهتكم فإذا نجاكم إلى البر رجعتم إلى شرككم!! وإذا قبل: إن القرآن يشتمل على تقرير توحيد الربوبية، فكيف يقرره وهم يعترفون به؟ والجواب: أنهم وإن كانوا يعترفون به، فإن الله تعالى يحتج عليهم بهذه التي يعترفون بها، حيث جعلوا معه آلهة أخرى، حيث أشركوا معه غيره، فيقول: إذا كنتم تعترفون بأن الله ربكم، فاشكروني على ما أولاكم، وعبيدوه حتى عبادته، ولا تجعلوا معه آلهة أخرى، فإنكم تعرفون على الآلهة الحق، لا تنبغي الإلهية لغيره، فكيف تعدلون عنه وتخلون معه تلك الآلهة التي تعترفون بها في حال الشدة أنها لا تفيدكم ولا تنفعكم؟! كثيرا ما يذكر الله تعالى الأدلة على هذا التوحيد-الذي هو توحيد الربوبية- ليكون دليلا على توحيد الألوهية، فمثلا في سورة البقرة قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ { هذا توحيد الألوهية. ثم احتج عليهم بتوحيد الربوبية: { الَّذِي خَلَقَكُمْ } يعترفون بأنه الذي خلقهم كما قال تعالى: { وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ { الذي خلقكم والذين من قبلكم آباءكم وأجدادكم، تعترفون بأنهم مخلوقون وأن الله تعالى هو الذي أوجدهم: { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً { يعترفون بأن الله هو الذي خلق الأرض وخلق السماء قال تعالى: { وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ { أي: يعترفون بذلك. وردت هذه الآية في سورة لقمان وكذلك في سورة الزمر، وكذلك في سورة الزخرف وفي سورة العنكبوت ومعها زيادة وهي قوله: { وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ { يعترفون بأنه الذي سخر الشمس والقمر والليل والنهار والذي جعل الأرض لهم فراشا، يتقلبون فيهم كما يشاءون، والذي رفع السماء وجعلها بناء، والذي جعل فيها هذه الآيات: { وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِصْبَاحًا وَحِفْظًا { فذلك كله يعترفون به، ومع ذلك يعبدون غيره. يعترفون أيضا بأنه الذي ينزل المطر، وينبت النبات، ومع ذلك يحتج تعالى بذلك، فيقول تعالى: { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا { فهذه أدلة توحيد الربوبية. احتج به على وجوب توحيد العبادة: إذا كنتم تعترفون بهذا فاعبدوه. ولهذا لما ذكر ابن كثير لهذه الآيات قال: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة. كذلك لما نزل قول الله تعالى: { وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِلَهُهُ الرِّجْمُ } قال المشركون: ما الدليل على أنه إله واحد؟ عندنا آلهة كثيرة بوصي بعضهم بها، ويقولون: { أَنْ أَمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَيَّ الْهَيْكَمُ } يقولون: { أَجَعَلَ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا } ما الدليل على أنه إله واحد؟ أنزل الله الآية التي بعدها { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } إذا تأملتم في هذه كلها خلق السماوات على ارتفاعها، ما ذكر من أنها سبع سماوات، والأرض على اتساعها وانسائها، واختلاف الليل والنهار، وتناوبها، إذا جلت الليل ذهب النهار وإذا جاء النهار ذهب الليل، يعني: غاب عن أهل تلك الجهة، والفلك أي السفن التي تجري في البحر، لو شاء الله تعالى ما جرت، قال تعالى: { إِنَّ يَسَاءَ بُشْكُنَ الرِّيْحِ قَيْطَلُنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ } جعل الله تعالى هذه الريح تدفعا، تجري في البحر بما ينفع الناس، يقطعون البحار على هذه السفن من جهة إلى جهة حتى يصلوا إلى البلاد البعيدة، فيتزودوا منها ويجاهدون، وينجرون فجعلها الله تعالى من آياته { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ } يعني: هذا المطر الذي ينزل إله تعالى من السماء، فيه منفعة للعباد، يشربون ويسقون دوابهم، ويسقون حروثهم، وتحيى بواسطته الأرض، وتهتز خضراء، وتنبث من كل زوج بهيج: { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا { بعدما كانت الأرض يابسة إذا نزل عليها الماء وشربت وارتوت، أنبتت الخضرة فإذا هي تهتز، ينبت الله تعالى فيها من أنواع النباتات مع اختلافها، تختلف في اللون وفي الطعم وفي الكبر والصغر، هذه تمتد وتنبت على الأرض، وهذه ترتفع ارتفاعا بسيرا، وهذه ترتفع ارتفاعا كبيرا، مع أن الأم واحدة، الأرض هي الأم واحدة، واللفاح واحد، وهو هذا المطر، ولذلك قال تعالى: { يَشْقَى مِثْلَهُ وَاحِدٌ { الماء واحد يسقيها، ومع ذلك تتفاوت منافعها، فمنها ما يكون قوتا للدواب، ومنها ما يكون قوتا للطيور، ومنها ما يكون قوتا للإنسان، وكلها منبعا واحدا: أي تنبت في الأرض. وكذلك أيضا تنسقي بهذا الماء. لا شك أن هذا آية عظيمة، ودليل ظاهر { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا { وكذلك قوله: { وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } يعني من الأدلة: خلق هذه الدواب التي تدب على الأرض، والتي لا يحصي عددها إلا الله، دواب لا تعيش إلا في البر، ودواب لا تعيش إلا في البحر، دواب البر إذا غمست في البحر ماتت، ودواب البحر إذا أخرجت من البحر ماتت، دليل على أن هذه لها غذاؤها، وهو الهواء، وهذه لها غذاؤها، وهو الماء. وكلها مخلوقة وفيها أرواح تتحرك وتتغذى وتأكل وتنسج ما يناسبها. منها ما هو صغير لا يكاد يذكره البصر، يعني كالعوض والذر والحيوانات الصغيرة التي لا ترى إلا بالمجهر أو تحوه، وما يجري الله تعالى لها من الرزق، هذه البعوضة الصغيرة، وهذه الذرة الصغيرة تتشاهد بسرعة حركتها، وهذه تتشاهد طيراتها، وتتشاهد تغذيتها وتأكل وتتقوت. وكل واحدة منها لها عروق يجري معها الطعام ويجري معها الشراب، وتتنفس أو تأكل وتخرج أكلاها. لا شك أن ذلك كله دليل على قدرة من خلقها، لو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا ذرة يركبون فيها أعضائها، ويركبون فيها قوائمها وعروقها وعظامها ومجاري طعامها، وينفخون فيها الروح حتى تتحرك لعجزوا عن ذلك، ولما كان ذلك في قدرتهم، ولكن الله تعالى قدر وجودها، تتوالد، وتوالدها بقضاء الله تعالى وبقدرته، بمعنى أنها يلقح بعضها بعضا، ثم تتوالد. تارة تلد كما تلد الأشي حيوانا حيا، وتارة تلد بيضا، وذلك البيض يكبر حتى يفقس. لا شك أن هذا دليل على قدرة من خلقها ومن أوجدها. فلذلك يحتج الله يقول: { وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } أي صغيرا كبيرا، فالدواب منها ما هو بطير ويرتفع في الجو ارتفاعا بعيدا، ومنها ما لا يرتفع إلا قليلا، وكلها قد ضمن الله لها رزقها وقوتها، لا تجد دابة ماتت جوعا، بل تجد لها قوتها، يبسر الله تعالى لها، وإن كان بعضها يأكل بعضا، فالسباع مثلا تنقوت بما تجده من دواب الأرض، الأصل أنها ما تغذى إلا باللحوم، هذه السباع وكذلك الكثير من الطيور، غذاؤها اللحم: كالرخم مثلا، والنسور والصفور، وما أشبهها، غذاؤها اللحوم، أين تجدها إذا كانت في البراري؟ يبسر الله تعالى لها، ويدلها على أماكن تجد فيها غذاؤها وما تنقوت به. كذلك الدواب التي تنقوت بالنباتات. كل هذا دليل على أن الله تكفل برزقها، وضمن لها حياتها. ولذلك قال النبي- صلى الله عليه وسلم- { لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خصاصا وتروح بطنان { لا تدخر رزقها، ولا تدخر قوتها لليوم الثاني والذي بعده، بل كل يوم: إذا غدت في الصباح وجدت ما تنقوت به، وجدت رزقا تنقوت به ذلك اليوم، ثم تروح إلى أوكارها وإلى وكناها التي تأوي إليها، فإذا أصبحت من الغد بكرت أو تأخرت لطلب الرزق، إلى أن تجد ما تنقوت به من النباتات، أو من الحيوانات، أو ما أشبه ذلك. هذه مما جعلها الله تعالى آية: { وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } . وكذلك قوله: { وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } أي: أنه من آياته. وكذلك من آياته: تصريف الرياح. كل هذه من آيات الله تعالى. وقد مر بنا آثار كثيرة فيها صفة إرسال الرياح وتسميتها، وكيف يرسلها الله، وكيف يرسلها ريحا شديدة، أو ريحا خفيفة، أو يرسلها رحمة، أو يرسلها عذابا. وكذلك أيضا السحب كيف تتجمع في السماء، كيف تكون تارة كثيفة وتارة خفيفة وتارة سوداء مائلة من الماء، وتارة تكون ليس فيها إلا الماء القليل، أو كما يشاء الله. لا شك أن ذلك كله من آيات الله التي يحتج بها على عباده حتى يعرفوه حق المعرفة، وحتى يعبدوه حق العبادة، ويخلصوا له عبادته. فيجعل الله تعالى توحيد الربوبية دليلا وجة على توحيد الإلهية الذي ينكرونه. ثم وُجِدَ في هذه الأزمنة الخلق الكثير الذين ينكرون أيضا توحيد الربوبية! ينكرون خلق الله تعالى للأشياء، وينكرون تقديره لها، يسمون قديما الدهرية الذين يقولون: { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } يدعون أن الدهر هو الذي يتصرف في الكون!! فجاء في هذه الأزمنة من يسمون بالشويعيين، الذين ينكرون الخلق والخالق، ويجعلون هذه الموجودات صادرة عن الطبيعة، فيقول فيهم بعض المتأخرين: ولا نصيح لعصري يفوه بما يناقض الشرع أو إياه يعتقد يرى الطبيعة في الأشياء مؤثرة أين الطبيعة يا معذول! إذ وجدوا قبل أن يكونوا موجودين: كيف كانت الطبيعة؟ وكيف أثرت هذه الطبيعة؟ الطبيعة من الذي طبيعتها؟ لا شك أن هذا كله من تسويل الشيطان، لو تفكر أحدكم في خلق نفسه لرأى فيها عجبا! ولذلك يحتج الله تعالى عليهم حتى بأنفسهم، فيقول الله تعالى: { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ } أي: في أنفسكم آيات وعبر، لو تفكر أحدكم في أدنى شيء منه: لو تفكر في عينيه التي يبصر بهما، وكيف تتربك من عدة طبقات؟ إذا سألتهم الأطباء الذين توغّلوا في التعرف على العين عرفوا منها أشياء عجيبة، تدل على عظمة من خلقها، وأوجدها، مع تفاوتها. إذا نظرت مثلا في عين الإنسان، وما فيها من البصر، إذا نظرت أيضا في عين العصفور مثلا، أو عين البعوضة، الناموسة تجد أن بصرها قد يكون أقوى من بصر الإنسان! وذلك لأنها تبصر الأماكن الرقيقة في جلد الإنسان التي تخرق منها العرق، وتسمى مسام البدن، ولأجل ذلك لا تقع إلا على تلك المسام، ثم تعرف فيها منقارها الذي هو كخرطوم القمل، ثم إذا غرزت خرقة ذلك المكان، فامتصت منه الدم. لا شك أن هذا دليل على أن الله تعالى أعطى كل شيء خلقه.. أعطاهما هذا الخلق، وهذه القوة، يعني: ما مقدار هذه الناموسة؟ ما مقدار عينها التي تبصر بها؟ وكيف صارت هذه العين تخرق هذه الأشياء؟ وتبصر الأشياء القريبة والبعيدة؟ فنعرف من ذلك أن ربنا سبحانه الذي أوجد هذه الموجودات هو الذي يستحق أن يعبد وحده، وأنه الذي خلق هذه المخلوقات-كبيرها وصغيرها- خلق هذه الأفلاك العلوية: الأرض وما فيها، والجبال وما عليها، وكذلك السماوات والنجوم، والأفلاك العلوية والشمس والقمر، وما أشبه ذلك، وسيرها وقدر سيرها، وخلق ما على الأرض من هذه الدواب، ومن هذه النباتات، وما أشبهها، ليتعرف إلى عباده أنه خالق كل شيء، ورازق كل شيء، والمتكفل بكل شيء، وأنه هو المستحق لأن يعبدوه، وأن الخلق عبيده، عبيد له مملوكون له، لا يخرجون عن تصرفه طرفة عين فإذا كان كذلك، فكيف مع ذلك يخرجون عن عبوديتهم له؟ ويتعبدون لغيره من المخلوقات، مما على الدنيا مما لا يساوي شيئا بالنسبة إلى الخالق سبحانه وتعالى. فهكذا يكون العبد العاقل المتفكر في آيات الله تعالى الكونية، يعرف أن الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة وحده.